

الكتاب الثالث: " جدلية الجنون والإبداع " (1) (الحلقة الأولى)



نشرة "الإنسان" 2019/09/08

السنة الثانية عشرة - العدد: 4390

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

[yehiatrakhawy@hotmail.com](mailto:yehiatrakhawy@hotmail.com)

بعد ما قدمنا أمس من اعتذار عن مواصلة نشر ملاحق هذا الكتاب الثانى "عن جدلية الجنون والإبداع" فضلت أن أقوم بتأجيل هذه الجداول جمعيا لأضمنها غالبا فى كتاب مستقبل عن حالات الوجود المتناوبة خاصة بعد أن تطورت لننطلق من الحالة المفترقية لتصبح دورات فى تبادل دورى مع الحالة العادية وحالة الإبداع بالإضافة إلى احتمالات المبالغة فى العادية إلى ما هو فرط العادية، واحتمالات إجهاض حالة الإبداع فما هو حالة الجنون المرضى، كل هذا ينبغي إعادة ترتيبه من منطلق نظرية الطبفسى الإيقاعى التطورى وأمل أن يصدر مجتمعا فى الكتاب الرابع عن الإبداع والجنون.

اليوم نبدأ فى الكتاب الرابع "عن الحرية والجنون والإبداع" وهو ما يمثل أساسا الفصل الثالث فى كتابى الجامع "حركية الوجود وتجليات الإبداع(2)"

استهلال:

تناول قضية الحرية مخاطرة حقيقية نظرا لما أحاطها من أوهام عصرية يصعب هزها أو حتى الاقتراب منها، إلا أنه لا يمكن أن نحيط بماهية الحرية الضرورية لحركية الإبداع إلا إذا غاصت الرؤى فى أعماق الوعى البشرى، حتى بيولوجيا الوجود عبر مسار التطور، الذى هو نفسه دليل خطير على عمق قضية الوجود الاختيارى، طالما أن الانقراض تهديد وارد، بل هو الاحتمال الأرجح تاريخيا، وأيضا لا مفر من الدخول إلى متاهات الأصل البيولوجى، والحثم التطورى شاملا ما يسمى الفطرة والغرائز وهى أصول جذرية أولية فى مسار البشر خاصة من منظور الإبداع والتطور.

مقدمة:

هذه الدراسة تركز على محاولة الاجابة على تساؤلات نشأت من الفروض السابقة، مثلا: إذا كان الإبداع هو فعل عادى لكل البشر، وهو تتعة بيولوجية إيقاعية راتبة، وإذا كان ناتج (نموا ذاتيا أو تشكيلا مسجلا) هو نتاج حركة دياكتيكية (إيقاعية دورية) متصاعدة، وإذا كانت جذور دوافعه، وإمكانات استيعابه شديدة الارتباط بكل من العدوان والجنس، كما أن فعل الإبداع يرتبط فى كل أن بدرجة التعتعة والمرونة وعدم التوازن الساعى إلى التوازن، إذا كان كل ذلك كذلك، فأين دور الإرادة والحرية فيه؟ وإلى أى مدى يعاق الإبداع إذا حُدَّ من فاعلية أى منها؟

وأى نوع من الإبداع أكثر عرضة للإعاقة إذا ما تراجعت فرص الحرية... الخ.

لكن قبل محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات علينا أن نعيد النظر فى ماهية الإرادة والحرية،

خاصة فيما يتعلق بالإبداع؟

الإشكالة والمنطلق

لا أكاد أستطيع الفصل - للأسف - بين مهنتى ووجودى بمختلف صورته، وخاصة حالة كونى أخلق

لا يمكن أن نحيط بماهية الحرية الضرورية لحركية الإبداع إلا إذا غاصت الرؤى فى أعماق الوعى البشرى، حتى بيولوجيا الوجود عبر مسار التطور، الذى هو نفسه دليل خطير على عمق قضية الاختيار

أن الانقراض تهديد وارد، بل هو الاحتمال الأرجح تاريخيا، وأيضا لا مفر من الدخول إلى متاهات الأصل البيولوجى، والحثم التطورى شاملا ما يسمى الفطرة والغرائز

لا أكاد أستطيع الفصل بين مهنتى ووجودى بمختلف صورته، وخاصة حالة كونى أخلق والعرايا الذين يشاركوننى مأزق حياتى/حياتنا

أتصور أن مهنتى قد أتاحت لى فرصة أكبر وأرحب لمعايشة الجنون فى الداخل

فرصة أن أضطر للتعري مع مرضاي وهم يتعرون، وأن أواجههم معهم لهم وهم يتحدون

أن أتأثر مسئولاً لألملنى (3) وإياهم وهم يتقدمون نحو الشفاء، أو يزدادون عريا وتناثرا وتحديا وعنادا

لكى يكون ثمَّ إبداع: لا بد من قدر مناسب من الحرية، وما دامت الحياة لا يمكن أن تستمر إلا بالإبداع تجنباً للسكون فالانقراض، فليس ثم حياة إلا بإبداعها المضطرد

الحرية- بمعنى إرادة الاختيار الواعى الظاهر - هى وهم شائع بشكل أو بآخر

إن "الإرادة الظاهرة" (الواعية) ليست هى الدليل الأول أو الأساسى على حضور الاختيار المعلن. هى ليست دليلاً على قرار عميق شامل لكل، أو أغلب، ما هو وجود حيوى إنسانى

أمارس حقيقة تعدد الذوات فى مرضاي ونفسي بشكل واقعى مباشر بحيث لم تعد المسألة نظرية محتملة، بل ممارسة يومية

وعى ووعى البشر العرايا الذين يشاركوننى مأزق حياتي/حياتنا، العرايا إلا من فطرتهم النافية الراضة المتأثرة المتململة، جنوناً. أكتب عامة، وهذه المرة خاصة، بصفتي معاشياً لوعى الجنون، فى مرضاي ومعهم، وفى نفسى، من خلالهم، وبهم. كم تساءلت - معجبا - وأنا أتابع أولئك الذين يكتبون عن الجنون دون أن تكون قد أتحت لهم الفرص الكافية لمعايشته، وخاصة أولئك الذين كتبوا عن الجانب الإيجابى له، تساءلت، باحترام ودهشة، كيف عرفوا كل ذلك وهم لا يعايشون ما أعاش؟ افترضت أنهم لا بد أن يكونوا قد عايشوا جنونهم الخاص بطريقة متميزة، أتصور أن مهنتى قد أتحت لى فرصة أكبر وأرحب لمعايشة الجنون فى الداخل والخارج على حد سواء، فرصة أن أضطر للتعري مع مرضاي وهم يتعرون، وأن أواجههم معهم لهم وهم يتحدون، وأن أتأثر مسئولاً لألملنى (3) وإياهم وهم يتقدمون نحو الشفاء، أو يزدادون عريا وتناثرا وتحديا وعنادا، وقد اخترت هذه المرة أن أرجح كفة المعايشة المباشرة كمصدر أساسى لمواجهة هذا الإشكال الأصعب، إشكال الحرية.

### بداية مزعجة

ليكن الدخول المباشر إلى التناقض الظاهر المقتمج، ثم نرى.

هى البداية البسيطة المزعجة مادام لا مفر، وهى تقول:

لكى يكون ثمَّ إبداع: لا بد من قدر مناسب من الحرية، وما دامت الحياة لا يمكن أن تستمر إلا بالإبداع تجنباً للسكون فالانقراض، فليس ثم حياة إلا بإبداعها المضطرد. لكن الحرية- بمعنى إرادة الاختيار الواعى الظاهر - هى وهم شائع بشكل أو بآخر.

### إزالة القدسية عن أوام قديمة

ثمة مقولات مقدسة، يجدر بنا التحذير من التسليم لها بالقصور الذاتى.

من البداية علينا أن نتذكر بوعى مناسب كيف أن:

- "الحمية" تسطيح سببى يخفى أكثر مما يفسر،
- كما أن "الغائية" احتمال مؤجل لا يمكن اليقين بمساره أو مآله،
- ثم إن "الإرادة الظاهرة" (الواعية) ليست هى الدليل الأول أو الأساسى على حضور الاختيار المعلن. هى ليست دليلاً على قرار عميق شامل لكل، أو أغلب، ما هو وجود حيوى إنسانى.

### تحديات

نحن نواجه إشكالية لها سمعة تجعلها مسلمة قاهرة، علينا أن نواجه التحديات الواحدة تلو الأخرى فى صبر يسمح بالتقدم إلى جوهر الإشكالية بما تستحق، ومن ذلك:

### تعدد الذوات (4) :

أمارس حقيقة تعدد الذوات فى مرضاي ونفسي بشكل واقعى مباشر بحيث لم تعد المسألة نظرية محتملة، بل ممارسة يومية. أصبح الغريب عندى أن أعامل أحداً، حتى من البكوات الأصحاء، باعتباره واحداً، والأغرب حين يصلنى من معظم الناس، أكاد أقول كلهم، أن مجرد ذكر الاعتراف بذلك ومواجهته هو الغريب، وما أسهل ما يطلق البعض على من يظن به تعدد الذوات (الذى هو الأصل) أنه فصامى، فنشوه صورة التعدد، بقدر ما يعلن العمل تحقيقه النسخ فى الفصامى.

فى برنامج "سر اللعبة" (5) "الذى كنت أقدمه فى قناة النيل الثقافية قمنا بلعبة "أنا واحد ولأ كثير"، وفوجئت، كما فوجئ الضيوف المشاركون معى، وربما المشاهدون، مع اختلاف أعمارهم وخلفيتهم الثقافية، أنها بديهية: أن كل واحد منا، هو "كثير" فعلاً. (6) " إن تعدد الذوات فى واحد، وتبادلها، وترتيباتها، كل ذلك يثير تساؤلات صعبة حول "من" الذى يختار من بين هذه الذوات فى لحظة بذاتها؟، ومن ثمَّ من هى الذات الحرة (التي تختار) من بين ذواتنا الكثر؟.

من واقع سيكوباتولوجى (إمراضى نفسى) تركيبى، دون تجاوز المستوى السلوكى، يلزمنا مفهوم تعدد الذوات (مستويات الوعى -حالات العقل -حالات الذات-، الأدمغة) أن نذكر إنه فى لحظة ما، توجد قيادة واحدة (قائد الإيقاع (7) (تمثل مستوى بذاته من مستويات التركيب البشرى (الممثل فى الدماغ تطورا

ونماء وحضورا أنيا) تتولى فى هذه اللحظة قيادة التركيب الحيوى المشتمل للكيان البشرى للفرد، وهذا عادة ما يتجلى فيما نعرفه بـ "الشخص" البادى لنا، بما قد يقابل الأنا الفرويدى. تقاس الإرادة فى هذه اللحظة بمدى نجاح هذا المستوى القائد (قائد الإيقاع) فى الاختيار المكتمل الذى يظهر ناتجه فى فعل موضوعى معن.

لكن المسألة لا تنتهى عند التسليم بهذا الترجيح الظاهر، إذ أن ما يبدو لنا قرارا إراديا اتخذته المستوى الظاهر قد لا يعدو أن يكون محصلة إرادات عديدة، وأحيانا قد يكون تعبيرا ملتقا لإرادة خفية، بل قد يصل الأمر إلى أن يكون الاختيار الظاهر هو مجرد عكس صريح للاختيار الحقيقى الأعماق لقائد الإيقاع من مستوى آخر لا يظهر حقيقته إلا قراءة الأعراض، وفهم الميكانيزمات، وتحديد الغائية، وكل ذلك لا يتم عادة إلا من خلال مواكبة (علاجية فى حالة المرض) طويلة، وما يقابل ذلك من نقد وشذ بصيرة فى حالة الصحة.

### بُعد الزمن المعاش:

إن اللحظة الآنية هى اللحظة الوحيدة الموجودة الواجدة (القادرة)، رغم أنها ليست إلا جماع البعد الطولى حالة كونها متفاعلة فى "الآن" المائل طول الوقت. الناتج المبدع ليس وليد اللحظة فقط، إلا أنه- أيضا- ليس سوى هذه اللحظة، فأى حرية يمكن أن نتحدث عنها فى علاقتها بالإبداع؟ الحرية التى سمحت بالتراكم الحركى المرن بما يسمح بحرية إطلاق الإبداع فى نقلة نوعية فى الوقت المناسب؟ أم حرية فعل الإبداع الآنى الذى تجاسر فاخترق وأعلن؟ إن ارتباط الإبداع بالإيقاع الحيوى يلزمنا أن نرى دور الحرية فى عملية الإبداع من خلال بعدها الطولى قبل النظر فى نتائجها الآنى، أى نراها من خلال التراكبات والتفاعلات وطريقة الاستيعاب التى أدت إليها، ومن ثم سمحت لطور "البسط" أن يعيد تنظيم الذات (أو المنتج الإبداعي) بالحرية الخالقة للتحويل النوعى.

### هوامش

- [1] هذا هو الكتاب الثالث باسم "عن الحرية والجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى فى مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثالث من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، والكتاب يوجد فى طبعته الأولى 2007 وهذه هى الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما جدَّ للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.

- [2] يحيى الرخاوى: "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد فى طبعته الأولى 2007 بمكتبة الأنجلو المصرية، وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مؤسسة الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا حاليا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط [www.rakhawy.net](http://www.rakhawy.net) ، وهذه هى الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما جدَّ للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.

- [3] كتبت كثيرا عن فضل مهنتى على وعيى، وفى رأى شخصيا أن معظم أعمالى، باختلاف أنواعها، هى نابعة من هذا المصدر، أو متصلة بهذا البعد، وقد ثار جدل متصل حول مصداقية اعتبار المرضى مصدرا لفهم الأسوياء، وذلك منذ محاولة سيجموند فرويد تعميم ما يرى عند المرضى على الأسوياء، كما قابلت اعتراضات كثيرة من أصدقاء لم يقرأوا هذا الاتجاه أبدا. فكان لزاما أن أنبه هنا إلى أن "المسألة ليست صادرة من منطق عقلاى وإنما هى نتاج خبرة تعاش، وهذا ما يمكن أن يعنيه تعبير "معاشة الجنون"، ذلك أن ما يصلنى من مرضاى ليس رؤية أو ملاحظة ترصد بقدر ما هى ناتج وعيى/وعيمهم/بهم/معهم/لي/ لهم، ويستحيل الفصل، بل إنه فى النهاية لا يكون إلا وعيى (الجديد) "أنا" بشكل أو بآخر، ولعل هذا ليس إلا إعادة لما كررته فى الفصلين السابقين مع إشارات كافية للمنهج

أن كل واحد منا، هو "كثير" فعلا" (6). إن تعدد الذوات فى واحد، وتبادلها، وتوتيرياتها، كل ذلك يثير تساؤلات صعبة حول "من" الذى يختار من بين هذه الذوات فى لحظة بذاتها؟

إنه فى لحظة ما، توجد قيادة واحدة (قائد الإيقاع) (7) تمثل مستوى بذاته من مستويات التركيب البشرى (الممثل فى الدماغ تطورا ونماء وحضورا أنيا) تتولى فى هذه اللحظة قيادة التركيب الحيوى المشتمل للكيان البشرى للفرد.

إن اللحظة الآنية هى اللحظة الوحيدة الموجودة الواجدة (القادرة)، رغم أنها ليست إلا جماع البعد الطولى حالة كونها متفاعلة فى "الآن" المائل طول الوقت

الناتج المبدع ليس وليد اللحظة فقط، إلا أنه- أيضا- ليس سوى هذه اللحظة

كتبت كثيرا عن فضل مهنتى على وعيى، وفى رأى شخصيا أن معظم أعمالى، باختلاف أنواعها، هى نابعة من هذا المصدر، أو متصلة بهذا البعد

الفينومينولوجي.

- [4] سبق تناول هذه القضية في الفصلين السابقين عن مداخل متنوعة، مع إشارة إلى الرجوع للمداخلة الأصل: يحيى الرخاوي (الوحده والتعدد في الكيان البشري) عدد أكتوبر سنة 1982 مجلة الإنسان والتطور. ومهما بدا في تناولها هنا من تكرار، إلا أن ذلك أساس لا يمكن الاستغناء عن الرجوع إليه بمزيد من التأكيد في هذا المقام بوجه خاص.

- [5] برنامج "سر اللعبة" استمر أكثر من عام 2004-2005 في قناة النيل الثقافية، وكان عبارة عن ألعاب جماعية، مع أربعة ضيوف متطوعين لمدة ساعة أسبوعياً، وقد غطى مساحة واسعة من تحريك الوعي مع ناس ليسوا من الأسوياء، مع دعوة المشاهدين جميعاً للمشاركة.

- [6] نوقشت استجابات الضيوف في هذه الحلقة "أنا واحد ولا كثير" وما استتبعها من إيضاح مفهوم التعدد على أعداد متتالية من صحيفة روزاليوسف اليومية في باب الإنسان الذي كان يتولاه الكاتب لمخاطبة القارئ العادي يوم الجمعة من كل أسبوع (على مدى 14 حلقة سنة 2006)

- [7] فضلت أخيراً استعمال هذا المصطلح فيما يقابل ما هو بالإنجليزية Pace Maker or Pace Setter وهذا المصطلح يطلق أساساً على نقطة الانبعاث في القلب المسئولة عن تنظيم دقاته كأنه المايسترو الذي يحرك المنظومة التوصيلية إلى سائر عضلة القلب، وفي النظرية التطورية الإيقاعية للكاتب يتخذ من هذا القياس مدخلاً لفهم آليات تنظيم مستويات الوعي (والدماغ) بالتبادل في حالات السواء، وبغير ذلك في حالات أخرى.

إرتباط كامل النص:

[www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD080919.pdf](http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD080919.pdf)

أن "المسألة ليست صادرة من منطق عقلاني وإنما هي نتاج خبرة تعاش، وهذا ما يمكن أن يعنيه تعبير "معاشة الجنون

أن ما يطنى من مرضى ليس رؤية أو ملاحظة ترصد بقدر ما هي ناتج وعيي/وعيمهم/بهم/معهم/لي/ لهم، ويستحيل الفصل، بل إنه في النهاية لا يكون إلا وعيي (الجديد) "أنا" بشكل أو بآخر

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقاً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

## مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة "فتية شلبي" لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرف شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور فتية شلبي "

( الطب النفسي، العراق / أمريكا )

على جائزتها للعام 2019 المنصبة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافاً لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

[www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf](http://www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf)

إرتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>